الفصل الرابع

آيات وعجائب خلق الحيوان

ومن آياته سبحانه خلق الحيوان على اختلاف أصنافه وأجناسه وأشكاله، ومنافعه وألوانه، وعجائبه المودعة فيه، فمنه الماشي على بطنه، ومنه الماشي على رجليه ومنه الماشي على أربع، ومنه ما جعل سلاحه في رجليه وهو ذو المخالب، ومنه ما جعل سلاحه المناقير، كالنسر والرخم[١] والغراب ومنه، ما سلاحه الأسنان ومنه ما سلاحه الصياصي، وهي القرون يدافع بها عن نفسه من يروم أخذه ومنه ما أعطى منها قوة يدفع بها عن نفسه لم يحتج إلى سلاح، كالأسد، فإن سلاحه قوته ومنه ما سلاحه في ذرقه[٢]، وهو نوع من الطير إذا دنا منه من يريد أخذه ذرق عليه فأهلكه.

ونحن نذكر هنا فصولًا منثورة من هذا الباب مختصرة، وإن تضمنت بعض التكرار وترك الترتيب في هذا المقام الذي هو من أهم فصول الكتاب، ولهذا يكرر في القرآن ذكر آياته ويعيدها ويبديها ويأمر عباده بالنظر فيها مرة بعد أخرى، فهو من أجل مقاصد القرآن قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ

(١) الرخم: طائر غزير الريش أبيض اللون مبقع بسواد، له منقار طويل وله جناح طويل مدبب يبلغ طوله بنحو نصف متر.

(٢) الذرق: براز الطير.

﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٩]، فأمر سبحانه بالنظر إليه وقت خروجه وإثماره ووقت نضجه وإدراكه يقال: أينعت الثمار إذا نضجت وطابت لأن في خروجه من بين الحطب والورق آية باهرة، وقدرة بالغة ثم في خروجه من حد العفوصة واليبوسة، والمرارة، والحموضة، إلى ذلك اللون المشرق الناصع والطعم الحلو اللذيذ الشهي، لآيات لقوم يؤمنون.

وقال بعض السلف حق على الناس أن يخرجوا وقت إدراك الثمار وينعها، فينظروا إليها ثم تلا: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾.

ولو أردنا نستوعب ما في آيات الله المشهورة من العجائب والدلالات الشاهدة لله بأن الله الذي لا إله إلا هو الذي ليس كمثله شيء، وأنه الذي لا أعظم منه ولا أكمل منه ولا أبر ولا ألطف لعجزنا نحن، والأولون والآخرون عن معرفة أدنى عشر معشار ذلك، ولكن ما لا يدرك جميعه لا ينبغي ترك التنبيه على بعض ما يستدل به على ذلك [١].

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣١٧-٣١٨).

فصلٌ في تفريقه سبحانه خلق الحيوان وإعطاء كل نوع منها ما لابد له منه

ثم تأمل الحكمة في خلق الحيوان الذي يأكل اللحم من البهائم كيف جعلت له أسنان حداد، وبراثن شداد، وأشداق مهرونة[١]، وأفواه واسعة وأعينت بأسلحة وأدوات تصلح للصيد والأكل، ولذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير حداد، ومخالب كالكلاليب، ولهذا حرَّم النبي ﷺ كل ذي ناب من السباع، ومخلب من الطير[٢]، لضرره وعدوانه وشره، والمغتذى شبيه بالغاذي، فلو اغتذى بها الإنسان لصار فيه من أخلاقها، وعدوانها، وشرها، ما يشابهها به، فحرم على الأمة أكلها ولم يحرم عليهم الضبع[٣]، وإن كان ذا ناب، فإنه ليس من السباع عند أحد من الأمم والتحريم إنما كان لما تضمن الوصفين أن يكون ذا ناب، وأن يكون من السباع.

ولا يقال هذا ينتقض بالسبع إذا لم يكن له ناب، لأن هذا لم يوجد أبدًا، فصلوات الله وسلامه على من أوتي جوامع الكلم، فأوضح الأحكام وبين الحلال والحرام.

فانظر حكمة الله عز و جل في خلقه وأمره فيما خلقه وفيما شرعه تجد مصدر ذلك كله الحكمة البالغة، التي لا يختل نظامها ولا ينخرم أبدًا ولا يختل أصلا[٤].

ومن الناس من يكون حظه من مشاهدة حكمة الأمر أعظم من مشاهدة حكمة الخلق وهؤلاء خواص العباد الذين عقلوا عن الله أمره ودينه، وعرفوا حكمته فيما أحكمه، وشهدت فطنهم وعقولهم أن مصدر ذلك حكمة بالغة وإحسان ومصلحة أريدت بالعباد في معاشهم ومعادهم، وهم في ذلك درجات لا يحصيها إلا الله.

(١) المقصود: واسعة.

(٢) رواه مسلم برقم [١٩٣٤].

(٣) رواه أبو داود برقم [٣٨٠١]، وصححه الألباني في الإرواء برقم [١٠٥٠].

(٤) السابق [٣٦٢].

ومنهم من يكون حظه من مشاهدة حكمة الخلق أوفر من حظه من حكمة الأمر، وهم أكثر الأطباء الذين صرفوا أفكارهم إلى استخراج منافع النبات، والحيوان، وقواها وما تصلح له مفردة ومركبة، وليس لهم نصيب في حكمة الأمر إلا كما للفقهاء من حكمة الخلق، بل أقل من ذلك.

ومنهم من فتح عليه بمشاهدة الخلق، والأمر بحسب استعداده وقوته، فرأى الحكمة الباهرة التي بهرت العقول في هذا وهذا فإذا نظر إلى خلقه وما فيه من الحكم ازداد إيمانًا ويقينًا وتسليمًا، لا كمن حجب بالصنعة عن الصانع وبالكواكب عن مكوكبها، فعمي بصره وغلظ عن الله حجابه، ولو أعطى علمه حقه لكان من أقوى الناس إيمانًا؛ لأنه اطلع من حكمة الله وباهر آياته وعجائب صنعته الدالة عليه، وعلى علمه وقدرته، وحكمته، على ما خفي عن غيره.

ولكن من حكمة الله أيضًا أن سلب كثيرًا من عقول هؤلاء خاصيتها، وحجبها عن معرفته وأوقفها عند ظاهر من العلم بالحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون لدناءتها وخستها، وحقارتها، وعدم أهليتها لمعرفته ومعرفة أسمائه وصفاته، وأسرار دينه، وشرعه، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وهذا باب لا يطلع الخلق منه على ما له نسبة إلى الخافي عنهم منه أبدًا، بل علم الأولين والآخرين منه كنقرة العصفور من البحر ومع هذا، فليس ذلك بموجب للإعراض عنه واليأس منه، بل يستدل العاقل بما ظهر له منه على ما وراءه[١].

الحكمة في قوائم الحيوانات:

ثم تأمل الحكمة البالغة في قوائم الحيوان كيف اقتضت أن يكون زوجًا، لا فردًا إما اثنتين وإما أربعًا ليتهيأ له المشي والسعي وتتم بذلك مصلحته، إذ لو كانت فردًا لم يصلح لذلك لأن الماشي ينتقل ببعض قوائمه، ويعتمد على بعض، فذو القائمتين ينقل واحدة

(١) السابق [٣٦٣].

ويعتمد على الأخرى وذو الأربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين وذلك من خلاف، لأنه لو كان ينقل قائمتين من جانب ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر، لم يثبت على الأرض حال نقله قوائمه ولكان مشيه نقرًا كنقر الطائر، وذلك مما يؤذيه ويتبعه لنقل بدنه، بخلاف الطائر، ولهذا إذا مشى الإنسان كذلك قليلًا أجهده وشق عليه، بخلاف مشيه الطبيعي الذي هو له، فاقتضت الحكمة تقديم نقل اليمنى من يديه مع اليسرى من رجليه، وإقرار يسرى اليدين ويمنى الرجلين، ثم نقل الأخريين كذلك وهذا أسهل ما يكون من المشي وأخفه على الحيوان[١].

تأمل ذوات الأربع من الحيوان:

ثم تأمل أولًا ذوات الأربع من الحيوان كيف تراها تتبع أمهاتها مستقلة بأنفسها، فلا تحتاج إلى الحمل والتربية، كما يحتاج إليه أولاد الإنس، فمن أجل أنه ليس عند أمهاتها ما عند أمهات البشر من التربية، والملاطفة، والرفق، والآلات المتصلة والمنفصلة أعطاها اللطيف الخبير النهوض، والاستقلال بأنفسها على قرب العهد بالولادة، ولذلك ترى أفراخ كثير من الطير، كالدجاج والدراج والقبج[٢]، يدرج ويلقط حين يخرج من البيضة، وما كان منها ضعيف النهوض كفراخ الحمام واليمام أعطى سبحانه أمهاتها من فضله العطف، والشفقة، والحنان ما تمج به الطعم في أفواه الفراخ من حواصلها، فتخبأه في أعز مكان فيها، ثم تسوقه من فيها إلى أفواه الفراخ، ولا تزال بها كذلك حتى ينهض الفرخ، ويستقل بنفسه وذلك كله من حظها وقسمها الذي وصل إليها من الرحمة الواحدة من المائة[٣]، فإذا استقل بنفسه وأمكنه الطيران لم يزل به الأبوان يعالجانه أتم

---

(١) السابق [٣٦٥].

(٢) الدارج: هو ما يدرج في مشيه. القبج: هو ما يجل في مشيه.

(٣) قال رسول الله ﷺ «**إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة وأرسل في خلقه رحمة واحدة**» رواه البخاري برقم [٦٤٦٩]، ومسلم برقم [٢٧٥٢].

معالجة وألطفها، حتى يطير من وكره ويسترزق لنفسه، ويأكل من حيث يأكلان وكأنهما لم يعرفاه ولا عرفهما قط، بل يطردانه عن الوكر ولا يدعانه وأقواتهما وبينهما، بل يقولان له بلسان يفهمه اتخذ لك وكرًا وقوتًا، فلا وكر لك عندنا ولا قوت.

فسل المعطل أهذا كله عن إهمال؟ ومن الذي ألهمها ذلك؟ ومن الذي عطفها على الفراخ وهي صغار أحوج ما كانت إليها، ثم سلب ذلك عنها إذ استغنت الفراخ رحمة بالأمهات تسعى في مصالحها، إذ لو دام لها ذلك لأضربها وشغلها عن معاشها، لاسيما مع كثرة ما يحتاج إليه أولادها من الغذاء، فوضع فيها الرحمة والإيثار والحنان رحمة بالفراخ وسلبها إياها عند استغنائها رحمة بالأمهات.

أفيجوز أن يكون هذا كله، بلا تدبير مدبر حكيم، ولا عناية، ولا لطف منه سبحانه وتعالى.

لقد قامت أدلة ربوبيته وبراهين إلهيته، وشواهد حكمته وآيات قدرته، فلا يستطيع العقل لها جحودًا إن هي إلا مكابرة باللسان من كل جحود كفور ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وإنما يكون الشك فيما تخفي أدلته، وتشكل براهينه، فأما من له في كل شيء محسوس أو معقول آية-بل آيات مؤدية عنه شاهدة له بأنه الله الذي لا اله إلا هو رب العالمين- فكيف يكون فيه شك[١].

الحكمة في آلات البطش:

ثم تأمل الحكمة في خلق آلات البطش في الحيوانات من الإنسان وغيره، فالإنسان لما خلق مهيئًا لمثل هذه الصناعات، من البناء، والخياطة، والكتابة، وغيرها خلق له كف مستدير منبسط وأصابع يتمكن بها من القبض، والبسط، والطي، والنشر، والجمع،

(١) السابق [٣٦٣-٣٦٤].

والتفريق، وضم الشيء إلى مثله، والحيوان البهيم لما لم يتهيأ لتلك الصنائع، لم يخلق له تلك الأكف والأصابع، بل لما قدر أن يكون غذاء بعضها من صيده- كالسباع- خلق له أكف لطافه مدمجة ذوات براثن ومخالب تصلح لاقتناص الصيد، ولا تصلح للصناعات، هذا كله في أكلة اللحم من الحيوان.

وأما أكلة النبات لما قدر أنها لاتصطاد، ولا صنعة لها، خلق لبعضها أظلافًا تقيها خشونة الأرض إذا جالت في طلب المرعي، ولبعضها حوافر ململمة مقعرة كأخمص القدم لتنطبق على الأرض وتهيأ للركوب والحمولة، ولم يخلق لها براثن ولا أنيابا لأن غذاءها لا يحتاج إلى ذلك.

الحكمة من إعطاء البهائم الأسماع والأبصار:

ثم تأمل الحكمة البالغة في إعطائه سبحانه بهيمة الأنعام الأسماع والأبصار ليتم تناولها لمصالحها، ويكمل انتفاع الإنسان بها، إذ لو كانت عمياء أو صماء لم يتمكن من الانتفاع بها، ثم سلبها العقول على كبر خلقها التي للإنسان على كبر خلقها ليتم تسخيره إياها، فيقودها ويصرفها حيث شاء، ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لامتنعت من طاعته واستعصت عليه ولم تكن مسخرة له، فأعطيت من التمييز والإدراك ما تتم به مصلحتها ومصلحة من ذلك له، وسلبت من الذهن والعقل ما ميز به عليها الإنسان وليظهر أيضًا فضيلة التمييز والاختصاص.

ثم تأمل كيف قادها وذللها على كبر أجسامها ولم يكن يطيقها لولا تسخيره قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٢-١٣]

أي مطيقين ضابطين، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١-٧٢]، فترى البعير على عظم خلقته يقوده الصبي الصغير ذليلًا منقادًا ولو أرسل عليه لسواه بالأرض ولفصله عضوًا عضوًا.

فسل المعطل: من الذي ذللهُ وسخره وقاده على قوته لبشر ضعيف من أضعف المخلوقات، وفرغ بذلك التسخير النوع الإنساني لمصالح معاشه ومعاده، فإنه لو كان يزاول من الأعمال والأحمال ما يزاول الحيوان لشغل بذلك عن كثير من الأعمال، لأنه كان يحتاج مكان الجمل الواحد إلى عدة أناسي يحملون أثقاله وحمله ويعجزون عن ذلك، وكان ذلك يستفرغ أوقاتهم ويصدهم عن مصالحهم، فأعينوا بهذه الحيوانات مع مالهم فيها من المنافع التي لا يحصيها إلا الله من الغذاء، والشراب، والدواء، واللباس، والأمتعة، والآلات، والأواني، والركوب، والحرث، والمنافع الكثيرة والجمال[١].

لماذا جعلت ظهور الدواب مبسوطة؟

ثم تأمل الحكمة البالغة في أن جعل ظهور الدواب مبسوطة كأنها سقف على عمد قوائم ليتهيأ ركوبها، وتستقر الحمولة عليها، ثم خولف هذا في الإبل، فجعل ظهورها مسنمة معقودة كالقبو[٢] لما خصت به من فضل القوة وعظم ما تحمله، والأقباء تحمل أكثر مما تحمل السقوف حتى قيل إن عقد الأقباء إنما أخذ من ظهور الإبل.

تأمل كيف لما طول قوائم البعير طول عنقه ليتناول المرعي من قيام، فلو قصرت عنقه لم يمكنه ذلك مع طول قوائمه وليكون أيضًا طول عنقه موازنًا للحمل على ظهره إذا

---

(١) السابق [٣٦١-٣٦٢].

(٢) القبو: هو الطاق المعقود بعضه إلى بعض في شكل قوس.

استقل به كما ترى طول قصبة القبان حتى قيل: إن القبان إنما عمل من خلقه الجمل من طول عنقه وثقل ما يحمله، ولهذا تراه يمد عنقه إذا استقل بالحمل كأنه يوازنه موازنة[١].

الحكمة في بروز فرج البهيمة:

ثم تأمل الحكمة في كون فرج الدابة جعل بارزًا من ورائها ليتمكن الفحل من ضرابها[٢] ولو جعل في أسفل بطنها كما جعل للمرأة لم يتمكن الفحل من ضرابها إلا على الوجه الذي تجامع به المرأة. وقد ذكر في كتب الحيوان أن فروج الفيلة في أسفل بطنها، فإذا كان وقت الضراب ارتفع ونشز وبرز للفحل، فيتمكن من ضرابها، فلما جعل في الفيلة على خلاف ما هو في سائر البهائم خصت بهذه الخاصية عنها ليتهيأ الأمر الذي به دوام النسل[٣].

الحكمة في خلق الشعر للبهيمة:

ثم تأمل كيف كسيت أجسام الحيوان البهيمي هذه الكسوة من الشعر، والوبر، والصوف، وكسيت الطيور الريش، وكسى بعض الدواب من الجلد ما هو في غاية الصلابة، والقوة، كالسلحفاة وبعضها، من الريش ما هو كالأسنة كل ذلك بحسب حاجاتها إلى الوقاية من الحر والبرد والعدو الذي يريد أذاها.

فإنها لما لم يكن لها سبيل إلى اتخاذ الملابس واصطناع الكسوة وآلات الحرب أعينت بملابس وكسوة لا تفارقها وآلات وأسلحة تدفع بها عن نفسها وأعينت بأظلاف وأخفاف وحوافر لما عدمت الأحذية والنعال، فمعها حذاؤها وسقاؤها وخص الفرس

---

(١) السابق [٣٦٥].

(٢) أي جماعها.

(٣) السابق[٣٦٦].

والبغل والحمار بالحوافر لما خلق للركض والشد والجري وجعل لها ذلك أيضًا سلاحًا عند انتصافها من خصمها عوضًا عن الصياصي[١] والمخالب والأنياب والبراثن.

فتأمل هذا اللطف والحكمة، فإنها لما كانت بهائم خرسًا لا عقول لها ولا أكف ولا أصابع مهيأة للانتفاع والدفاع، ولاحظ لها فيما يتصرف فيه الآدميون من النسج والغزل ولطف الحيلة جعلت كسوتها من خلقتها باقية عليها ما بقيت، لا تحتاج إلى الاستبدال بها وأعطيت آلات وأسلحة تحفظ بها أنفسها كل ذلك لتتم الحكمة التي أريدت بها ومنها

وأما الإنسان، فإنه ذو حيلة وكف مهيئة للعمل، فهي تغزل وتنسج ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالًا بعد حال وله في ذلك صلاح من جهات عديدة.

منها: أن يستريح إذا خلع كسوته إذا شاء، ويلبسها إذا شاء، ليس كالمضطر إلى حمل كسوة ومنها أن يتخذ لنفسه ضروبًا من الكسوة للصيف وضروبًا للشتاء، فإن كسوة الصيف لا تليق بالشتاء وكسوة الشتاء لا تليق بالصيف، فيتخذ لنفسه في كل فصل كسوة موافقة.

ومنها: أنه يجعلها تابعة لشهوته وإرادته.

ومنها: أنه يتلذذ بأنواع الملابس كما يتلذذ بأنواع المطاعم، فجعلت كسوته متنوعة تابعة لاختياره، كما جعلت مطاعمه كذلك، فهو يكتسي ما يشاء من أنواع الملابس المتخذة من النبات تارة كالقطن والكتان، ومن الحيوان تارة كالوبر والصوف والشعر ومن الدود تارة كالحرير، والإبريسم[٢]، ومن المعادن تارة كالذهب والفضة، فجعلت كسوته متنوعة لتتم لذته وسروره وابتهاجه وزينته بها، ولذلك كانت كسوة أهل الجنة منفصلة عنهم كما هي في الدنيا ليست مخلوقة من أجسامهم كالحيوان، فدل على أن ذلك أكمل وأجل وأبلغ في النعمة.

(١) الصياصي: القرون.

(٢) هو: أجود أنواع الحرير.

ومنها: إرادة تمييزه عن الحيوان في ملبسه كما ميزه عنه في مطعمه ومسكنه، وبيانه وعقله وفهمه، ومنها اختلاف الكسوة واللباس وتباينه بحسب تباين أحواله وصنائعه وحربه وسلمه وظعنه وإقامته، وصحته ومرضه، ونومه ويقظته، ورفاهيته، فلكل حال من هذه الأحوال لباس وكسوة تخصها، لا تليق إلا بها فلم يجعل كسوته في هذه الأحوال كلها واحدة لا سبيل إلى الاستبدال بها، فهذا من تكريمه وتفضيله على سائر الحيوان[١].

في حكمة خلق الدابة على ما يشاهد منها:

ثم تأمل الحكمة الباهرة في وجه الدابة كيف هو؟ فإنك ترى العينين فيه شاخصتين أمامها لتبصر ما بين يديها أتم من بصر غيرها لأنها تحرس نفسها وراكبها، فتتقى أن تصدم حائطًا أو تتردى في حفرة، فجعلت عيناها كعيني المنتصب القامة لأنها طليعة، وجعل فوها مشقوقًا في أسفل الخطم لتتمكن من العض والقبض على العلف، إذ لو كان فوها في مقدم الخطم كما أنه من الإنسان في مقدم الذقن لما استطاعت أن تتناول به شيئًا من الأرض، ألا ترى الإنسان لا يتناول الطعام بفيه لكن بيده، فلما لم تكن الدابة تتناول طعامها بيدها جعل خطمها مشقوقًا من أسفله لتضعه على العلف ثم تقضمه وأعينت بالجحفلة[٢] وهي لها كالشفة للإنسان لتلتقم بها ما قرب منها وما بعد.

بعض الحكم في ذنب الدابة:

وقد أشكلت منفعة الذنب[٣] على بعض الناس، ولم يهتد إليها وفيه منافع عديدة:

فمنها: أنه بمنزلة الطبق على الدبر والغطاء على حياها[٤] يواريهما، ويسترهما.

---

(١) السابق [٣٦٦-٣٦٧].

(٢) الجحفلة لذوات الحوافر من الخيل والبغال والحمير كالشفة للإنسان وجمعها حجافل.

(٣) وهو: الذيل.

(٤) أي: الفرج.

ومنها: أن بين الدبر ومراق البطن[١] من الدابة له وضر[٢] يجتمع عليه الذباب والبعوض، فيؤذي الدابة، فجعل أذنابها كالمذاب لها والمراوح تطرد به ذلك.

ومنها: أن الدابة تستريح إلى تحريكه وتصريفه يمنة ويسرة، فإنه لما كان قيامها على الأربع بكل جسمها وشغلت قدماها بحمل البدن عن التصرف والتقلب كان لها في تحريك الذنب راحة. وعسى أن يكون فيها حكم أخر تقصر عنها أفهام الخلق، ويزدريها السامع إذا عرضت عليه، فإنه لا يعرف موقعها إلا في وقت الحاجة، فمن ذلك أن الدابة تربض في الوحل[٣]، فلا يكون شيء أعون على رفعها من الأخذ بذنبها[٤].

مشفر الفيل وما فيه من الحكم والأسرار:

ثم تأمل شفر[٥] الفيل وما فيه من الحكم الباهرة، فإنه يقوم له مقام اليد في تناول العلف والماء وإيرادهما إلى جوفه ولولا ذلك ما استطاع أن يتناول شيئًا من الأشياء من الأرض؛ لأنه ليست له عنق يمدها كسائر الأنعام، فلما عدم العنق أخلف عليه مكانه الخرطوم الطويل ليسد مسده وجعل قادرًا على سدله ورفعه وثنيه والتصرف به كيف شاء، وجعل وعاء أجوف لين الملمس، فهو يتناول به حاجته ويحمله ما أراد إلى جوفه ويحبس فيه ما يريد ويكيد به إذا شاء، ويعطى ويتناول إذا أراد.

فسل المعطل من الذي عوضه ومن أخلف عليه مكان العضو الذي منعه ما يقوم له مقامه وينوب منابه غير الرؤوف الرحيم بخلقه المتكفل، بمصالحهم اللطيف بهم؟

---

(١) أي: أسفل البطن.

(٢) الوضر: الوسخ.

(٣) الوَحلُ: الطين الرقيق ترتطم فيه الناس والدواب.

(٤) السابق [٣٧٠]

(٥) أي: خرطوم الفيل.

وكيف يتأتى ذلك مع الإهمال وخلو العالم عن قَيِّمِهِ وبارئه ومبدعه وفاطره لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

فإن قلت فما باله لم يخلق ذا عنق كسائر الأنعام، وما الحكمة في ذلك؟ قيل والله أعلم بحكمته في مصنوعاته لأن رأسه وأذنيه أمر هائل عظيم، وحمل ثقيل، فلو كان ذا عنق كسائر الأعناق لانهدت رقبته بثقله ووهنت بحمله، فجعل رأسه ملصقًا بجسمه لئلا يناله منه شيء من الثقل والمؤنة وخلق له مكان هذا المشفر الطويل يتناول به غذاءه.

ولما طالت عنق البعير للحكمة في ذلك صغر رأسه بالنسبة إلى عظم جثته لئلا يؤذيه ثقله ويوهن عنقه، فسبحان من فاتت حكمه عد العادين وحصر الحاصرين[1] [2].

خلق الزرافة واختلاف أعضائها

ثم تأمل خلق الزرافة واختلاف أعضائها وشبهها بأعضاء جميع الحيوان فرأسها رأس فرس وعنقها عنق بعير وأظلافها أظلاف بقرة، وجلدها جلد نمر، حتى زعم بعض الناس أن لقاحها من فحول شتى.

وذكروا أن أصنافها من حيوان البر، إذا وردت الماء ينزو بعضها على بعض فتنزو المستوحشة على السائمة، فتنتج مثل هذا الشخص الذي هو كالملتقط من أناس شتى وما أرى هذا القائل إلا كاذبًا عليها، وعلى الخلقة، إذ ليس في الحيوان صنف يلقح صنفًا

---

(١) السابق(١/ ٣٧١).

(٢) الفيل هو أضخم الحيوانات الثديية على وجه الأرض ويبلغ ارتفاعه ثلاثة أو أربعة أمتار، بينما يصل وزنه إلى ثلاثة آلاف وربما سبعة آلاف كيلو جرام.

ولذكر الفيل نابان يبلغ طول كل منها ثلاثة أمتار ونصف ووزن كل ناب مائة كيلو جرام، ويستهلك الفيل «١٥٠-٢٥٠» كيلو جرام من الحشائش والأعشاب وأوراق الشجر وثمار الفاكهة يوميًا ويشرب ثلاثين جالونًا من الماء، ويعيش الفيل نحوًا من خمسة وستون عامًا ويستطيع الفيل أن يرفع بخرطومه ثقلًا مقداره ألف كيلو جرام من فوق الأرض، كما يستطيع أن يلف خرطومه حول رجل ويقذفه بعيدًا لمسافة «٤٠» مترًا، ويوجد بهذا الخرطوم نحو ٤٠ ألف عضله ويغلق الفيل خرطومه أثناء نومه حتى لا يتسرب له الهواء الجوي (الموسوعة الذهبية بتصرف ٣٢٦).

آخر، فلا الجمل يلقح البقر ولا الثور يلقح الناقة ولا الفرس يلقحها ولا يلقحانه، ولا الوحوش يلقح بعضها بعضًا ولا الطيور وإنما يقع هذا نادرًا فيما يتقارب كالبقر الوحشي والأهلي والضأن والمعز والفرس والحمار والذئب والضبع، فيتولد من ذلك البغل والسمع والعسبار[١].

وقول الفقهاء هل تجب الزكاة في المتولد من الوحشي والأهلي؟ فيه وجهان هذا إنما يتصور في واحد واثنتين وثلاثة يكمل بها النصاب.

فأما نصاب كله متولد من الوحشي والأهلي، فلا وجود لذلك والأحكام المتعلقة بهذه المتولدات تذكر في الزكاة وجزاء الصيد والأضاحي والأحوط فيغلب في كل باب الأحوط.

ففي الأضاحي يغلب عدم الإجزاء وفي الإحرام والحرم يتغلب وجوب الجزاء وفي الأطعمة يغلب جانب التحريم وفي الزكاة اختلاف مشهور.

وسئل شيخنا أبو العباس بن تيمية -قدس الله روحه- عن حمار نزا على فرس، فأحبلها فهل يكون لبن الفرس حلالًا أو حرامًا؟

فأجاب بأنه حلال ولا حكم للفحل في اللبن في هذا الموضع بخلاف الأناسي، لأن لبن الفرس حادث من العلف، فهو تابع للحمها ولم يسر وطىء الفحل إلى هذا اللبن، فإنه لا حرمة هناك تنتشر بخلاف لبن الفحل في الأناسي، فإنه تنتشر به حرمة الرضاع ولا حرمة هنا تنتشر من جهة الفحل إلا إلى الولد خاصة، فإنه يتكون منه ومن الأم، فغلب عليه التحريم.

وأما اللبن، فلم يتكون بوطئه وإنما تكون من العلف، فلم يكن حرامًا هذا بسط كلامه وتقريره. والمقصود: إبطال زعم أن هذه الحيوانات المختلفة يلقح بعضها بعضًا

(١) السمع هو: ولد الذئب من الضبع. والعسبار هو: ولد الضبع من الذئب.

عند الموارد، فتتكون الزرافة وإنه كاذب عليها وعلى الإبداع والذي يدل على كذبه أنه ليس الخارج من بين ما ذكرنا من الفرس والحمار، والذئب، والضبع، والضأن، والمعز، عضو من كل واحد من أبيه وأمه كما يكون للزرافة عضو من الفرس وعضو من الجمل، بل يكون كالمتوسط بينهما الممتزج[١] منهما كما نشاهده في البغل، فإنك ترى رأسه وأذنيه وكفله[٢] وحوافره وسطًا بين أعضاء أبيه وأمه مشتقة منهما حتى تجد شحيجه[٣] كالممتزج من صهيل الفرس ونهيق الحمار. فهذا يدل على أن الزرافة ليست بنتاج آباء مختلفة كما زعم هذا الزاعم، بل من خلق عجيب ووضع بديع من خلق الله الذي أبدعه آية دلالة على قدرته وحكمته التي لا يعجزها شيء، ليرى عباده أنه خالق أصناف الحيوان كلها كما يشاء وفي أي لون شاء.

فمنها: المتشابه الخلقة المتناسب الأعضاء.

ومنها: المختلف التركيب والشكل والصورة كما يرى عباده قدرته التامة في خلقه لنوع الإنسان على الأقسام الأربعة الدالة على أنه مخلوق بقدرته ومشيئته تابع لها:

فمنه: ما خلق من غير أب ولا أم وهو أبو النوع الإنساني[٤].

ومنه: ما خلق من ذكر، بلا أنثى وهي أمهم التي خلقت من ضلع آدم[٥].

ومنه: ما خلق من أنثى، بلا ذكر وهو المسيح ابن مريم.

---

(١) السابق[٣٧١-٣٧٢].

(٢) الكفل: مؤخرة الدابة ونحوها.

(٣) وهو اسم صوته.

(٤) آدم عليه السلام.

(٥) حواء.

ومنه: ما خلق من ذكر وأنثى وهو سائر النوع الإنساني ليرى عباده آياته ويتعرف إليهم بآلائه وقدرته وأنه إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون. وأما طول عنق الزرافة وما لها فيه من المصلحة، فلأن منشأها ومرعاها كما ذكر المعتنون بحالها ومساكنها في عياطل[١] ذوات أشجار شاهقة ذاهبة طولًا، فأعينت بطول العنق لتتناول أطراف الشجر الذي هناك وثمارها وهذا ما وصلت إليه معرفتهم وحكمة اللطيف الخبير فوق ذلك وأجل منه[٢][٣].

فطنة الحيوان:

ومن عجيب الفطنة في الحيوان أن الثعلب إذا أعوزه الطعام ولم يجد صيدًا تماوت ونفخ بطنه حتى يحسبه الطير ميتًا، فيقع عليه ليأكل منه، فيثب عليه الثعلب فيأخذه.

ومن عجيب الفطنة في هذه الذبابة الكبيرة التي تسمى أسد الذباب، فإنك تراه حين تحس بالذباب قد وقع قريبًا منه يسكن مليًا حتى كأنه موات لا حراك فيه، فإذا رأى الذباب قد اطمأن وغفل عنه دب دبيبًا رفيقًا حتى يكون منه بحيث يناله ثم يثب عليه فيأخذه.

ومن عجيب حيل العنكبوت أنه ينسج تلك الشبكة شركًا للصيد ثم يكمن في جوفها، فإذا نشب فيها البرغش[٤] والذباب وثب عليه وامتص دمه.

---

(١) وهي: الهضاب الطويلة.

(٢) السابق (١/ ٣٧٣).

(٣) تعتبر الزرافة حيوانًا أخرس لا صوت لها. ورغم عنقها الطويل جدًا إلا أن عدد فقرات عنقها يساوي عدد فقرات عنق الفأر وكلاهما سبع فقرات، وتبلغ فترة حمل الزرافة خمسة عشر شهرًا، وتلد الزرافة واقفة، وبرغم أن الوليد يسقط من ارتفاع مترين إلا إنه لا يصاب بأذى وذلك لأن طول الوليد عند ولادته متران (الموسوعة الذهبية ص ٣٢٧ بتصرف).

(٤) البُرغش: البعوض اللسَّاع.

فهذا يحكى صيد الأشراك والشباك والأول يحكى صيد الكلاب والفهود .

ولا تزدرين العبرة بالشيء الحقير من الذرة والبعوض، فإن المعنى النفيس يقتبس من الشيء الحقيروالازدراء بذلك ميراث من الذين استنكرت عقولهم ضرب الله تعالى في كتابه المثل بالذباب والعنكبوت والكلب والحمار، فأنزل الله تعالى﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البَقَرَة:٢٦]، فما أغزر الحكم وأكثرها في هذه الحيوانات التي تزدريها وتحتقرها، وكم من دلالة فيها على الخالق ولطفه ورحمته.

فسل المعطل من ألهمها هذه الحيل والتلطف في اقتناص صيدها الذي جعل قوتها، ومن جعل هذه الحيل فيها بدل ما سلبها من القوة والقدرة فأغناها ما أعطاها من الحيلة عما سلبها من القوة والقدرة سوى اللطيف الخبير(١).

الحكمة في خلق الألبان:

ثم تأمل العبرة التي ذكرها الله -عَزَّ وَجَلَّ- في الأنعام وما سقانا من بطونها من اللبن الخالص السائغ الهنيء المريء الخارج من بين الفرث والدم، فتأمل كيف ينزل الغذاء من أفواهها إلى المعدة فينقلب بعضه دمًا بإذن الله، وما يسرى في عروقها وأعضائها وشحومها ولحومها، فإذا أرسلته العروق في مجاريها إلى جملة الأجزاء قلبه كل عضو أو عصب وغضروف وشعر وظفر وحافر إلى طبيعته ثم يبقى الدم في تلك الخزائن التي له إذ به قوام الحيوان، ثم ينصب ثقله إلى الكرش فيصير زبلًا ثم ينقلب باقية لبنًا صافيًا أبيض سائغًا للشاربين، فيخرج من بين الفرث والدم حتى إذا أنهكت الشاة أو غيرها حلبًا خرج الدم مشوبًا بحمرة، فصفى الله سبحانه الألطف من الثفل بالطبخ الأول وانفصل إلى الكبد وصار دمًا وكان مخلوطًا بالأخلاط الأربعة فأذهب الله -عَز و جلَّ- كل خلط منها إلى مقره وخزانته المهيأة له، من المرارة والطحال، والكلية، وباقي الدم

(١) السابق [٣٧٥].

الخالص يدخل في أوردة الكبد، فينصب من تلك العروق إلى الضرع، فيقلبه الله تبارك وتعالى من صورة الدم وطبعه وطعمه إلى صورة اللبن وطبعه وطعمه، فاستخرج من الفرث والدم.

فسل المعطل الجاحد من الذي دبر هذا التدبير وقدر هذا التقدير وأتقن هذا الصنع ولطف هذا اللطف سوى اللطيف الخبير[١]؟!

في أن الوحوش والبهائم لا يرى إلا القليل منها على أنها أكثر من الإنسان

تأمل حكمة عجيبة جعلت للبهائم والوحوش والسباع والدواب على كثرتها لا يرى منها شيء وليس شيئًا قليلًا، فتخفى لقلتها، بل قد قيل إنها أكثر من الناس واعتبر ذلك بما تراه في الصحاري من أسراب الظباء، والبقر، والوعول، والذئاب، والنمور، وضروب الهوام على اختلافها وسائر دواب الأرض وأنواع الطيور التي هي أضعاف أضعاف بني آدم لا تكاد ترى منها شيئًا ميتًا لا في كناسه[٢] ولا في أوكاره ولا في مساقطه ولا في مراعيه وطرقه وموارده ومناهله ومعاقله ومعاصمه، إلا ما عدا عليه عاد إما افترسه سبع أو رماه صائد أو عدا عليه عاد أشغله وأشغل بني جنسه عن إحراز جسمه وإخفاء جيفته، فدل ذلك على أنها إذا أحست بالموت ولم تغلب على نفسها كمنت حيث لا يوصل إلى أجسامها وقبرت جيفها قبل نزول البين بها ولولا ذلك لامتلأت الصحارى بجيفها وأفسدت الهواء بروائحها، فعاد ضرر ذلك بالناس وكان سبيلًا إلى وقوع الوباء.

وقد دل على هذا قوله تعالى: في قصة ابني آدم: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١]

---

(١) السابق[٣٨٥].

(٢) ما يأوي إليه من مداخل الشجر.

وأما ما جعل عيشه بين الناس كالأنعام والدواب، فلقدرة الإنسان على نقله واحتياله في دفع أذيته منع مما جعل في الوحوش كالسباع.

فتأمل هذا الذي حار بنو آدم فيه وفيما يفعلون به كيف جعل طبعًا في البهائم وكيف تعلموه من الطير.

وتأمل الحكمة في إرسال الله تعالى لابن آدم الغراب المؤذن اسمه بغربة القاتل من أخيه وغربته هو من رحمة الله تعالى وغربته من أبيه وأهله واستيحاشه منهم واستيحاشهم منه، وهو من الطيور التي تنفر منها الإنس ومن نعيقها وتستوحش بها، فأرسل إليه مثل هذا الطائر حتى صار كالمعلم له والأستاذ وصار بمنزلة المتعلم والمستدل. ولا تنكر حكمة هذا الباب وارتباط المسميات فيه بأسمائها فقد قال النبي ﷺ «**إذا بعثتم إلَّي بريدًا فابعثوه حسن الاسم حسن الوجه**»[(١)(٢)].

وكان يسأل عن اسم الأرض إذا نزلها واسم الرسول إذا جاء إليه، ولما جاءهم سهيل ابن عمرو يوم الحديبية قال «**قد سهل لكم أمركم**»[(٣)]»

ولما أراد تغيير اسم حزن بسهل قال: «**لم يزل معنى اسمه فيه وفي ذريته**» ولما سأل عمر بن الخطاب الرجل عن اسمه واسم أبيه وداره ومنزله فأخبره أنه جمرة بن شهاب وأن داره بالحرقة وأن مسكنه منها ذات لظى، قال له: أدرك بيتك فقد احترق فكان كما قال.

وشواهد هذا الباب أكثر من أن نذكر ها هنا.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة [٣٣٦٧٩] (١٢/ ٣٤٥) وصححه الألباني في الصحيحة رقم [١١٨٦].

(٢) السابق [٣٦٨-٣٦٩].

(٣) رواه البخاري برقم[٢٧٣١].

وهذا باب لطيف المنزع شديد المناسبة بين الأسماء والمسببات وكثيرًا ما أولع الناس قديمًا وحديثًا بنعيق الغراب واستدلالهم به على البين والاغتراب، وينسبونه إلى الشؤم وينفرون منه وينفر منهم، فكان جديرًا أن يرسل هذا الطائر إلى القاتل من ابني آدم دون غيره من الطيور فكأنه صورة طائره الذي ألزمه في عنقه وطار عنه من عمله.

ولا تظن أن إرسال الغراب وقع اتفاقًا خاليًا من الحكمة، فإنك إذا خفي عليك وجه الحكمة، فلا تنكرها واعلم أن خفاءها من لطفها وشرفها ولله تعالى فيما يخفى وجه الحكمة فيه على البشر الحكم الباهرة المتضمنة للغايات المحمودة.

عجيبة عن الذئاب والقردة:

ومن عجيب أمر الذئب أنه عرض لإنسان يريد قتله فرأى معه قوسًا وسهمًا فذهب وجاء بعظم رأس جمل في فيه وأقبل نحو الرجل، فجعل الرجل كلما رماه بسهم اتقاه بذلك العظم حتى أعجزه وعاين نفاذ سهمه، فصادف من استعان به على طرد الذئب.

ومن عجيب أمر القرد ما ذكره البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال: «**رأيت في الجاهلية قردًا وقردة زنيا، فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى ماتا**» فهؤلاء القرود أقاموا حد الله حين عطله بنو آدم [١].

من عجائب الثعالب:

ومن عجيب هدايتها أن الثعلب إذا امتلأ من البراغيث أخذ صوفة بفمه ثم عمد إلى ماء رقيق، فنزل فيه قليلًا حتى ترتفع البراغيث إلى الصوفة فيلقيها في الماء و يخرج، ومن عجيب أمره أن ذئبًا أكل أولاده وكان للذئب أولاد وهناك زبية[٢] فعمد الثعلب وألقى نفسه فيها وحفر فيها سردابًا يخرج منه، ثم عمد إلى أولاد الذئب فقتلهم وجلس ناحية

---

(١) الشفاء العليل [١٦٦].

(٢) الزبية: حفرة في موضع عال تغطي فوهتها فإذا وطئها الأسد وقع فيها.

ينتظر الذئب، فلما أقبل وعرف أنها فعلته هرب قدامه وهو يتبعه فألقى نفسه في الزبية ثم خرج من السرداب، فألقى الذئب نفسه وراءه، فلم يجده ولم يطق الخروج فقتله أهل الناحية. ومن عجيب أمره أن رجلًا كان معه دجاجتان فاختفى له وخطف إحداهما، وفر ثم أعمل فكره في أخذ الأخرى فتراءى لصاحبها من بعيد وفي فمه شيء شبيه بالطائر، وأطمعه في استعادتها بأن تركه وفر فظن الرجل أنها الدجاجة فأسرع نحوها وخالفه الثعلب إلى أختها فأخذها وذهب.

ومن عجيب أمره أنه أتى إلى جزيرة فيها طير، فأعمل الحيلة كيف يأخذ منها شيئًا فلم يطق فذهب وجاء بضغث من حشيش وألقاه في مجرى الماء الذي نحو الطير ففزع منه، فلما عرفت أنه حشيش رجعت إلى أماكنها، فعاد لذلك مرة ثانية وثالثة ورابعة حتى تواظب الطير على ذلك وألفته فعمد إلى جرزة أكبر من ذلك، فدخل فيها وعبر إلى الطير فلم يشك الطير أنه من جنس ما قبله، فلم تنفر منه فوثب على طائر منها وعدا به.

وهذا الثعلب إذا اشتد به الجوع انتفخ ورمى بنفسه في الصحراء كأنه جيفة، فتتداوله الطير، فلا يظهر حركة ولا نفسًا، فلا تشك أنه ميت حتى إذا نقر بمنقاره وثب عليها فضمها ضمة الموت.

وهذا ابن عرس والقنفذ إذا أكلا الأفاعي والحيات عمدا إلى الصعتر النهري فأكلاه كالترياق لذلك. ومن عجيب أمر الثعلب أنه إذا أصاب القنفذ قلبه لظهره لأجل شوكه، فيجتمع القنفذ حتى يصير كبة شوك فيبول الثعلب على بطنه ما بين مغرز عجبه إلى فكيه، فإذا أصابه البول اعتراه الأسر فانبسط فيسلخه الثعلب من بطنه ويأكل مسلوخه.

البقر:

وهذه البقر يضرب ببلادتها المثل وقد أخبر النبي ﷺ :أن رجلًا بينا هو يسوق بقرة إذ ركبها فقالت: لم أخلق لهذا، فقال الناس: سبحان الله بقرة تتكلم، **فقال:**

«**فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم**» قال: وبينا رجل يرعى غنمًا له إذ عدا الذئب على شاة منها فاستنقذها منه فقال الذئب: هذه استنقذتها مني فمن لها يوم السبع يوم لا راعي لها غيري؟! فقال الناس: سبحان الله ذئب يتكلم، فقال رسول الله ﷺ: «**إني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما**»(١).

الحمير:

ومن هداية الحمار الذي هو من أبلد الحيوان أن الرجل يسير به ويأتي به منزله من البعد في ليلة مظلمة فيعرف المنزل، فإذا خلى جاء إليه، ويفرق بين الصوت الذي يستوقف به والصوت الذي يحث به على السير.

الفأر:

ومن عجيب أمر الفأر أنها إذا شربت من الزيت الذي في أعلى الجرة فنقص وعز عليها الوصول إليه ذهبت وحملت في أفواهها ماء وصبته في الجرة حتى يرتفع الزيت فتشربه.

والأطباء تزعم أن الحقنة أُخذت من طائر طويل المنقار إذا تعسر عليه الذرق جاء إلى البحر المالح وأخذ بمنقاره منه واحتقن به فيخرج الذرق بسرعة(٢).

حكماء تعلموا من العجماوات:

وكثير من العقلاء يتعلم من الحيوانات البهم أمورًا تنفعه في معاشه وأخلاقه وصناعته وحربه وحزمه وصبره وهداية الحيوان فوق هداية أكثر الناس، قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

---

(١) رواه البخاري برقم [٢٣٢٤]، ومسلم برقم[١٨٥٧].

(٢) شفاء العليل [١٦٧-١٦٨].

قال أبو جعفر الباقر: والله ما اقتصر على تشبيههم بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلًا منها. فمن هدى الأنثى من السباع إذا وضعت ولدها أن ترفعه في الهواء أيامًا تهرب به من الذر والنمل؛ لأنها تضعه كقطعة من لحم، فهي تخاف عليه الذر والنمل؛ فلا تزال ترفعه وتضعه وتحوله من مكان إلى مكان حتى يشتد.

وقيل لآخر: من علمك اللجاج في الحاجة والصبر عليها وإن استعصت حتى تظفر بها؟ قال: من علم الخنفساء إذا صعدت في الحائط تسقط ثم تصعد ثم تسقط مرارًا عديدة حتى تستمر صاعدة.

وقيل لآخر: من علمك البكور في حوائجك أول النهار لا تخل به؟ قال: من علم الطير تغدو خماصًا كل بكرة في طلب أقواتها على قربها وبعدها لا تسأم ذلك ولا تخاف ما يعرض لها في الجو والأرض. وقيل لآخر: من علمك السكون والتحفظ والتماوت حتى تظفر بأربك، فإذا ظفرت به وثبت وثوب الأسد على فريسته؟ فقال: الذي علم الهر أن ترصد جحر الفأرة، فلا تتحرك ولا تتلوى ولا تختلج كأنها ميتة، حتى إذا برزت لها الفأرة وثبت عليها كالأسد. وقيل لآخر: من علمك الصبر والجلد والاحتمال وعدم السكون؟ قال: من علم أبا أيوب صبره على الأثقال والأحمال الثقيلة والمشي والتعب وغلظة الجمال وضربه، فالثقل والكل على ظهره ومرارة الجوع والعطش في كبده وجهد التعب والمشقة ملأ جوارحه ولا يعدل به ذلك عن الصبر.

وقيل لآخر: من علمك حسن الإيثار والسماحة بالبذل؟ قال: من علم الديك يصادف الحبة في الأرض وهو يحتاج إليها، فلا يأكلها، بل يستدعي الدجاج ويطلبهن طلبًا حثيثًا حتى تجيء الواحدة منهن فتلقطها وهو مسرور بذلك طيب النفس به، وإذا وضع له الحب الكثير فرقه هاهنا وهاهنا وإن لم يكن هناك دجاج لأن طبعه قد ألف البذل والجود، فهو يرى من اللؤم أن يستبد وحده بالطعام وقيل لآخر: من علمك هذا التحيل في طلب الرزق ووجوه تحصيله؟ قال: من علم الثعلب تلك الحيل التي يعجز العقلاء

عن علمها وعملها، وهي أكثر من أن تذكر، من علم الحيوان ذلك؟! ومن علم الأسد إذا مشى وخاف أن يقتفى أثره ويطلب عفى أثر مشيته بذنبه؟! من علمه أن يأتي إلى شبله في اليوم الثالث من وضعه، فينفخ في منخريه؛ لأن اللبؤة تضعه جروًا كالميت، فلا تزال تحرسه حتى يأتي أبوه فيفعل به ذلك؟! ومن ألهم كرام الأسود وأشرافها أن لا تأكل إلا من فريستها، وإذا مر بفريسة غيره لم يدن منها ولو جهده الجوع؟! ومن علم الأسد أن يخضع للببر[١] ويذل له إذا اجتمعا حتى ينال منه سؤله ومن عجيب أمره أنه إذا استعصى عليه شيء من السباع دعا الأسد، فأجابه إجابة المملوك لمالكه ثم أمره فربض بين يديه فيبول في أذنيه، فإذا أراد السباع ذلك أذعنت له بالطاعة والخضوع!!

ومن علم الثعلب إذا اشتد به الجوع أن يستلقي على ظهره ويختلس نفسه إلى داخل بدنه حتى ينتفخ فيظن الظان أنه ميتة فيقع عليه فيثب على من انقضى عمره منها؟ ومن علمه إذا أصابه صدع أو جرح أن يأتي إلى صبغ معروف، فيأخذ منه ويضعه على جرحه كالمرهم؟ ومن علم الدب إذا أصابه كلم[٢] أن يأتي إلى نبت قد عرفه وجهله صاحب الحشائش فيتداوى به فيبرأ؟! ومن علم الأنثى من الفيلة إذا دنا وقت ولادتها أن تأتي إلى الماء فتلد فيه؟ لأنها دون الحيوانات لا تلد إلا قائمة، لأن أوصالها على خلاف أوصال الحيوان، وهي عالية فتخاف أن تسقطه على الأرض، فينصدع أو ينشق، فتأتي ماء وسطًا تضعه فيه فيكون كالفراش اللين والوطاء الناعم! ومن علم الذباب إذا سقط في مائع أن يتقي بالجناح الذي فيه الداء دون الآخر؟ ومن علم الكلب إذا عاين الظباء أن يعرف المعتل من غيره والذكر من الأنثى، فيقصد الذكر مع علمه بأن عدوه أشد وأبعد فيأخذه ويدع الأنثى على نقصان عدوها؟ لأنه قد علم أن الذكر إذا عدا شوطًا أو شوطين حقن ببوله وكل حيوان إذا اشتد فزعه فإنه يدركه الحقن، وإذا حقن الذكر لم يستطع البول مع

---

(١) الببر: حيوان ثدي من اللواحم وهو حيوان مفترس كبير الحجم يقال له في مصر النمر وجمعه : بُبُور.

(٢) الكلم: الجُرح.

شدة العدو فيقل عدوه، فيدركه الكلب، وأما الأنثى فتحذف بولها لسعة القبل وسهولة المخرج فيدوم عدوها، ومن علمه أنه إذا كسا الثلج الأرض أن يتأمل الموضع الرقيق الذي قد انخسف، فيعلم أن تحته جحر الأرنب فينبشه ويصطادها علمًا منه بأن حرارة أنفاسها تذيب بعض الثلج فيرق، ومن علم الذئب إذا نام أن يجعل النوم نوبًا بين عينيه، فينام بإحداهما حتى إذا نعست الأخرى نام بها وفتح النائمة؟ حتى قال بعض العرب:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي ... بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

ومن علم العصفورة إذا سقط فرخها أن تستغيث، فلا يبقى عصفور بجوارها حتى يجيء فيطيرون حول الفرخ ويحركونه بأفعالهم ويحدثون له قوة وهمة وحركة حتى يطير معهم؟ قال بعض الصيادين: ربما رأيت العصفور على الحائط، فأومئ بيدي كأني أرميه، فلا يطير وربما أهويت إلى الأرض كأني أتناول شيئًا، فلا يتحرك فإن مسست بيدي أدنى حصاة أو حجر أو نواة طار قبل أن تتمكن منها يدي.

ومن علم اللبب وهو صنف من العناكب أن يلطأ بالأرض ويجمع نفسه، فيرى الذبابة أنه لاه عنها ثم يثب عليها وثوب الفهد؟!

ومن علم العنكبوت أن تنسج تلك الشبكة الرفيعة المحكمة وتجعل في أعلاها خيطًا ثم تتعلق به، فإذا تعرقلت البعوضة في الشبكة تدلت إليها فاصطادتها؟

ومن علم الظبي أنه لا يدخل كناسة إلا مستدبرًا ليستقبل بعينيه ما يخافه على نفسه وخشفه[1]. ومن علم السِّنَّور[2] إذا رأى فأرة في السقف أن يرفع رأسه كالمشير إليها بالعود، ثم يشير إليها بالرجوع، وإنما يريد أن يدهشها فتزلق فتسقط. ومن علم اليربوع أن يحفر بيته في سفح الوادي حيث يرتفع عن مجرى السيل ليسلم من مدق الحافر ومجرى الماء، ويعمقه ثم يتخذ في زواياه أبوابًا عديدة ويجعل بينها وبين وجه الأرض حاجزًا

(١) الخشف: الصغير.

(٢) السنور: هو القط.

رقيقًا، فإذا أحس بالشر فتح بعضها بأيسر شيء وخرج منه، ولما كان كثير النسيان لم يحفر بيته إلا عند أكمة أو صخرة علامة له على البيت إذا ضل عنه. ومن علم الفهد إذا سمن أن يتوارى لثقل الحركة عليه حتى يذهب ذلك السمن ثم يظهر؟! ومن علم الأيل[١] إذا سقط قرنه أن يتوارى لأن سلاحه قد ذهب، فيسمن لذلك فإذا كمل نبات قرنه تعرض للشمس والريح وأكثر من الحركة ليشتد لحمه ويزول السمن المانع له من العدو؟!

وهذا باب واسع جدًا ويكفي فيه قوله سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٨-٣٩][٢].

(١) الأيل: هو الوعل جمعه أيايل وأيائل.

(٢) السابق [١٧٠-١٧١].